

نحو خطاب إعلامي ملتزم

لمرحلة ما بعد داعش

الورقة البحثية المشاركة في ندوة (إصلاح الخطاب
الديني لمرحلة ما بعد داعش) التي أقامتها مؤسسة بيت
الحكمة بتاريخ ٢٧/٩/٢٠١٧

للباحث الدكتور محمد حسين مهاوي/

رئيس قسم الدراسات العليا في كلية الإمام الكاظم ع للعلوم
الإسلامية الجامعة

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين...

أما بعد فقد لعبت وسائل الإعلام على اختلاف تنوعها (الصحافة والتلفزيون والانترنت وما يتصل به من وسائل التواصل الاجتماعي "السوشيال ميديا") أثرا بالغا في توجيه مسار الخطاب أي خطاب يتغيّاه مرسله، وأخذت تهيمن على تحريك مقود الرأي العام، ولعل المقولة الافتراضية الاستفهامية الثنائية المتداولة: (من يحكم العالم: السياسة أم الاقتصاد) تقتضي إعادة النظر فيها نظرا لما تحقّقه الآلة الإعلامية من مكتسبات وسطوة وهيمنة في فضاء التلقي ورقيا وتفاعليا ورقميا وتستدعي تثليث هذه المقولة وذلك بوصف الإعلام قوة موازية ومكملة لهذين العاملين؛ إذ لا ينفك الإعلام إجرائيةً مهمّة تُسوّق لأي خطاب سواء كان سياسيا أو اقتصاديا و اجتماعيا أو غير ذلك، بوصفه نسقا ثقافيا لغويا مهما يتحكّم بالجمهور المستهدف. واتّصالا بما نحن عليه في موضوع الندوة التي آثرت أن تكون مشاركتي فيها بورقة بحثية تحت معنونة (نحو خطاب إعلامي ملتزم لمرحلة ما بعد داعش).

وفي هذه المقدمة المقتضبة يطرح الباحث سؤالين مركزيين يمكن لنا أن نختزل فيهما فكرة البحث أولهما: ما الأسباب والمسوغات وراء صناعة خطاب إعلامي غير متزن، فاقد لهويته ورسالته المنشودة؟ وثانيهما: كيف يمكن لنا أن نؤسس لخطاب ملتزم وواع ومسؤول يتساوق وطبيعة المرحلة الطارئة التي يعيش فيها العراق في ظل وجود الجماعات المتطرفة المتمثلة بما يسمى دولة الخلافة الإسلامية في العراق

والشام: اختصارا بتنظيم (داعش) وهذان السؤالان يستدعيان التعرض لحيثيات الأسباب وسبل المعالجة كما سيأتي تباعا في سياق البحث عن شاء الله تعالى.

الإعلام ولعبة تحريك الخطاب:

يمثل الخطاب بنحو عام في أي مجتمع من المجتمعات مجمل القول والفعل، أو ما يعبر عنه بالممارسة الاجتماعية، التي يحاول الإعلام نقلها إلى الجمهور عبر تحيزاته المعلنة وغير المعلنة (١). بعد قراءة فاحصة لظروف كل مجتمع من المجتمعات وطبيعة مكوناته الثقافية والتاريخية والدينية واللغوية؛ فالخطاب هو: "تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية، التي أعيد إدماجها في عمليات تحليل الخطاب الذي يحمل بُعدا سلطويا من المتكلم، بقصد التأثير في المتلقي، مستغلا في ذلك كل الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية" (٢) فنهم من هذا النص أن وظيفة الخطاب تكمن في عملية استرجاع تلك العلاقات الثقافية المختلفة، ومحاولة إسقاطها على وعي المتلقي عبر آليات ووسائل تناغم ثقافته وفكره ومحددات تلقية؛ إذ إن "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما" (٣) فالتلفظ قد يصدق على معنى الخطاب في وجه من وجوه اشتغالاته التواصلية ويفترض عملية تواصلية متجاذبة بين طرفي التلقي.

واتصالا بموضوع ورقة البحث التي أثرت حصرها في زاوية الخطاب الإعلامي الذي يُعدُّ نسقا ثقافيا مهما قادرا على أن يُحرّك اللعبة الإعلامية بحسب الموجهات والأيدلوجيات والمرجعيات التي تُهيمن على مساره، وآليات إيصاله، واقتربا من المنطقة الإجرائية لوظيفة الإعلام في العراق وتداعياتها على واقعه الأمني والسياسي والثقافي يَشخصُ سؤالٌ مستلٌّ من وعي التجربة التي مرّ بها بلدنا العزيز: هل استطاع الإعلام المحلي العراقي أن يؤدي دوره الفاعل -بوصفه موجهاً ودعامة ثقافية وفكرية- في صناعة خطاب وطني متسق وحضاري، ومسؤول يوازي حجم

التجربة والتراكمات السياسية والأمنية التي شهدتها بلادنا وتشهدها، ولاسيما في مرحلة التغيير التي مضى عليها أكثر من أربع عشرة سنة؟ الإيجاب والنفي ليسا نتيجة راجحة تزيل عَمَى هذا السؤال وتجلي حجه، بل قد تلد من هذا السؤال أسئلة جمّة، تتشابك وتتقاطع ولا تلتقي في منطقة من التوافق والرضا النسبي في أقل تقدير، فالإجابة هي ورطة تدخلنا في معمعة من التجاذبات تنتشأ وتختلف - إذا ما بحثنا في خلفيات كل مؤسسة إعلامية على تنوعها ومرجعياتها ومنشأ تمويلها-، لتحيلنا بالنتيجة على الخوض في تصنيف هذه المؤسسات بين الحزبية والرسمية والمستقلة وتشتت مع هذه التصنيفات الأهداف والغايات التي كان على الإعلام تأديتها بالنحو الذي تغلب فيه المصلحة الوطنية. بل أخذت بعض وسائل الإعلام المعارضة للعملية السياسية أو سمّاها "الانتقائية" - لو جاز التعبير - تقدم خطاباً أحادياً غير جمعي، موسوم بروى وأيدولوجيات مختلفة كان لها الأثر البارز في تحريك الرأي العام المحلي والعربي والعالمي على وفق ما مخطط له، مما أدّى إلى إيصال صورة ضبابية عن المشهد العراقي يمكن وصفها بتشنّي الهوية واضطراب الانتماء، ويعمل على فتح ثغرات مذهبية وعقدية وإثنية قد توصل فهومات وتصورات مخطوءة عن المكون العراقي، وتكون حججا ومسوغات لجماعات متطرفة تستهدف النسيج المجتمعي بذريعة الطائفة والقومية والإثنية.

الخطاب الإعلامي المحلي وإشكالات التسويق

واجهت المشهد العراقي إشكالات في تفسير عدد من المصطلحات اللغوية الدخيلة التي أفرزتها اللعبة السياسية والإسلام السياسي الذي لم يسوّقها الإعلام المحلي بالنحو المطلوب الذي تخدم واقع البلاد إيجابيا _ إن لم نقل إنه فشل في تأدية هذه الوظيفة _ فالاضطراب والقلق والتبني سمات بدت واضحة على كثير من تلك المصطلحات التي لم يمتلك فيها إعلامنا الأدوات والآليات الناجعة على تفكيكها

وإعادة إنتاجها بما يحقق المنفعة المنشودة، والأمثلة على ذلك كثيرة وسنحاول تسليط الضوء على أهمها:

أ. **مصطلح الإرهاب:** تشتغل دول مناهضة للفكر الإسلامي السمح على لصق جذور هذه المفردة بالدين الإسلامي، من خلال الاتكاء على بعض الأفكار السلفية المتطرفة التي أدلجت فلسفة هذا الدين في الوجهة المخطوءة واختزلته بمفردات عنفية إقصائية كقيمومة الدين على السيف والإلغاء والتكفير وأخذ الجزية انتهاك مبدأ التعايش الإنساني، اعتمادا على القراءات الأحادية للنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية ضعيفة السند؛ مما أدخلت هذا المصطلح في دوامة من الغموض والضبابية والتداخل وفتح الباب على مصراعيه أمام جملة من الشبهات والتناقضات كالخلط بين الإرهاب والمقاومة الوطنية، توصيف احتكار السلطة بالإرهاب من بينها: فوبيا المادة ٤ إرهاب، الضحايا وانتهاك النفس البشرية باسم الإرهاب حتى بدا المصطلح مصطلحا مروغا، يتلون بألوان كثيرة (٤)

وهذا التداخل والإشكال يستدعي إعادة النظر به، وتحريره من هذا الاضطراب اللغوي والمفاهيمي الإشكالي من خلال فسخ مجالات وفضاءات إعلامية وافية لتفكيك المصطلح وجذوره ومرجعياته، ومحاولة دفع الشبهات والمصاحبات الأنوية والذاتية في تفسيره.

ب. الاختلاف في توصيف الضحايا: لعبت قسم من وسائل الإعلام على تسويق ضحايا عمليات العنف والإرهاب والنزاعات، وفقا رغبات وبواعث لا إنسانية ذات منزع انتقامي وطائفي مناطقي، ومحاولة توجيه هذا الاختلاف وفقا لمحددات المهنة، فالاختلاف في ضحايا الوطن الواحد؛ تبعا للون والدين والعرق مساهمة غير ذكية تعمل على تسويق رسالة ليست أخلاقية، منشؤها المساومات الرخيصة على قيمة

الإنسان العراقي، مما يستدعي موقفا وطنيا وأخلاقيا في عدم المساومة والاختلاف في الهوية، والاتفاق على مظلومية المستهدف بغض النظر عن خلفياته وأصوله.

ت. التنازع بين الهويات الوطنية والفرعية (الإثنية القومية المذهبية)

ث. غلبة الروح الفردية على الجماعية في المشترك الوطني

وغيرها من القضايا التي أخفق الإعلام المحلي في التصدي لها ومعالجتها بنحو فاعل وحازم.

داعش والإعلام (وسائل التضليل وسبل المعالجة)

يلحظ المتتبع للدور الإعلامي والممارسات العنيفة التي يتبناها تنظيم داعش الإجرامي تطورا واضحا وبارزا في موضوع تسويق خطابها التضليلي التحريضي ضد المجتمعات المستهدفة ضمن أولوياتها؛ إذ تمتلك هذه الجماعات المتطرفة وسائل إعلام مختلفة ومتعددة، ولعل أبرزها استغلالها لشبكة الانترنت التي رأت أنها الوسيلة الفاعلة للتأثير في الجمهور، فقد أشارت أبحاث وتقارير إلكترونية إلى أن (تنظيم داعش الإرهابي الذي رأى أن الطريق الأمثل للوصول إلى مؤيديه في أسرع وقت ممكن لنشر أفكاره المتطرفة هو اهتمامه بهذه الشبكة، وإنشائه المؤسسات الإعلامية المختلفة، سواء الصحف والوكالات، مثل "أعماق"، أو المجالات مثل "دابق"، أو إذاعة "البيان"، بالإضافة إلى استخدامه للإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي) (٥) ويعتمد هذا التنظيم على وسائل التواصل الاجتماعي - السوشيال ميديا - بنحو لافت كبير؛ إذ توجد العديد من صفحات الفيس بوك وتويتر تعج بمتابعات تصل إلى أرقام مهولة، وزد على ذلك التطور اللافت في تسويق جرائمها عبر انتاجها للعديد من الأفلام الوثائقية ذات الجودة العالية فنيا، وبنحو محترف قد يرقى بعض ماتنتجه إلى مصاف الأعمال السينمائية العالمية، والشواهد كثيرة على

ذلك ومنها حادثة الطيار الأردني معاذ الكساسبة وحادثة قتل عدد من المصريين وغيرها واستعمالها وسائل فنية متقدمة ومؤثرات صورية خارقة من شأنها أن تلقي بظلالها على المجتمع.

هذا التطور اللافت والسريع يحتاج إلى جهود إعلامية موازية ومضادة سواء كانت محلية أو عربية أو عالمية تحاول أن تفند مزاعم وأكاذيب هذه الجماعة من خلال انتهاج طرق إعلامية متعددة تقف بالضد من هذا التضليل الذي تسوقه لكشف جرائمها وفضح أساليبها المراوغة.

الأمن الثقافي ومستويات الحصانة:

تؤكد كثير من الدراسات ولاسيما ذات الصبغة القرآنية والأدبية أن المتحكّم بالفرد والمجموع على مختلف الصعد هي الثقافة؛ لكونها موجها من موجهاات السلوك، وتعد العتبة الأولى لولوج قانون النظام، والأمن الثقافي يقع على رأس كل أمن، سواء أكان عسكريا أو اجتماعيا أو نفسيا وغيرها من أنماطه المختلفة، فالملغم الذي يفجر جسده بين الناس، لغم المخترقون عقله واخترقوا شفرته الثقافية وحصانته الفكرية، فما أحوجنا -نحن العراقيين- إلى أمن ثقافي حقيقي بعيد عن الموجهاات الخارجية التي قد تسحبه إلى دوامة التكريس لحفظ الأمن القومي للآخرين، مقابل أمننا القومي، فلا بد من تحصين مراكز الفكر والتسلح بالوعي الثقافي لمواجهة أي تحديات تستهدف أمنه المجتمعي. (٦)

نحو خطاب إعلامي ملتزم:

في الخلاصة التي تقوم عليها فكرة البحث وورقة العمل المقدمة يبرز سؤال مهم: ما الطرق الناجعة التي يمكن من خلالها صناعة خطاب إعلامي ملتزم يتناسب والمرحلة التي يعيشها العراق في المدة التي تلي داعش؟

والجواب عن هذا السؤال يمكن أن يتلخص بجملة من المخرجات والتوصيات المهمة التي خلصت إليها هذا القراءة، لكي نسّم خطابنا المحلي بالتوازن والمسؤولية في حفظ أمن البلاد وما يواجهه من تحديات، ولاسيما في المرحلة التي تلي تحرير العراق من زمر داعش الإجرامية:

* اتفاق الخطاب الإعلامي الوطني أو المحلي على المشتركات والقضايا ذات المصير الواحد التي تخص أمنه وسيادته وعدم المساس بها.

* التسويق المهني للمصطلحات والتعبيرات المختلف فيها، وتوظيفها بما يخدم مصلحة الوطن، ويحافظ على الهوية العراقية

* العمل على إشاعة روح التسامح والوحدة الوطنية فوق أي اعتبار فرعي.

* عدم الانتقائية والتعامل الإزدواجي في التوصيفات والمسميات التي تخص أي مكون من مكونات الطيف العراقي.

* التركيز على مناشئ الإرهاب وتفكيكها ثقافيا، والبحث عن ثقافات إنسانية بديلة

* ضرورة الابتعاد عن سياسة التأويل والثقافة الضدية، والبحث عن استراتيجيات أكثر اتساقا والطبيعة البشرية حضاريا وإنسانيا.

الهوامش والمصادر:

١. ينظر: الخطاب الإعلامي وتزييف الواقع، محمد شومان، مقالة منشورة على صحيفة الحياة/ أبريل/ نيسان ٢٠١٦

٢. -المنهج التداولي في مقارنة الخطاب- المفهوم، المبادئ، الحدود، نواري سعودي أبو زيد، بحث منشور في مجلة النقد الأدبي- فصول، العدد ٧٧، مصر، ٢٠١٠: (١٢١ و ١٢٢)

خو خطاب إعلامي ملتزم ملن حلتا ما بعد داعش // ٥. محمد الواضح

٣. تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٩: (١٩)

٤/ ينظر : الإعلام والإرهاب.. الإشكاليات والتحديات، د. حسن علي محمد، بحث منشور على

موقع Arab Media & Society (Issue 21, Spring 2016)

٥/ كيف ينجح الإعلام الداعشي في استقطاب مؤيديه؟، محمود علي، مقال إلكتروني منشور

على موقع البديل- <https://elbadil.com/2016/03/%D9%83%D9%8A%D9%81>

٦/ الأمن الثقافي، د. مشتاق عباس معن، ط١، شبكة الإعلام العراقية، ٢٠١٣: (١، ١٠)